

في طريق المدينة*

للأستاذ علي الطنطاوي

لفع وجهه نسيم الفجر البارد ، فهم بأن يقوم الى النافذة فيفلقها ويعود الى سريره ، ثم تخاذل واسترخى ، ولبت مستلقياً ، فسمع أصواتاً غريبة ، خيل اليه أنها أصوات الوحوش ، أو أحاديث الجن ، فجعد من الخوف ، وحدق فيما حوله ، فرأى كأنما هو قائم في أرض الشارع ، وعلى جانبيه أبنية نفمة عالية ، مربعة ومستديرة ، والوحوش تطل عليه من أعاليها ، تصرخ صراخاً مرعباً ، فاستعاذ بالله من هذا الحلم - وتقلب في فراشه ، وألقى يده على طرف السرير ، فأحس كأن قد وخزته ابرة ، أو كأن حية لدغته ، فقفز مذعوراً . وإذا هي الحقيقة لا الحلم ، وإذا جبال يده نبت من نبت الصحراء ، قصير شائك يقال له القتاد . . . كانت تقرب به الأمثال ، وإذا هو في البادية ، في « خور حمار » وإذا هي الرحلة تمتد به ثلاثة عشر يوماً ، وهو لا يزال دون (العلا) ، ولا يزال بينه وبين المدينة جبال وصحارى تسير فيها السيارة أياماً

جلس يذكر ما رأى في هذه الرحلة من ألوان المذاب ، وأشكال الخوف ، وما مر به من مشاق وصعاب أبصر فيها الموت عياناً ، ويئس فيها من النجاة . . . وذكر أنهم طالما تمنوا الموت لما وجدوا من العناء ، وأنهم طالما سلكوا من شعاب تقوم فيها السيارة وتقع ، ولا تنجو من شدة إلا إلى أشد منها ، وطالما ساروا في رمال كانت تموص فيها السيارة الى المرقاة فيدقونها دفعا ، ويمدون لها الخشب على الأرض مداً ، وطالما صعدوا جبالاً بمجز صمودها الماشى على رجليه ، فكانوا يجرون السيارة بالجبال ،

* كتبت هذه الكلمة في خور حمار ، وهو المر الوحيد في جبال الزبلقة ، لابد للسافر من دمشق الى المدينة من اجتازه ، بنا فيه ليلة الجمعة ثمان مضين من المحرم مع الوفد الذي خرج من دمشق يوم الأحد لأربع بقين من ذي الحجة لفتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة يرأسه سعادة الشيخ ياسين بك الرذاف المتشد السابق للحكومة الحجازية في الشام ، وهو صاحب هذا اللعروج واليه يعود الفضل فيه

وطالما هبطوا أودية لا يهبطها مثل الروايات الأميركية . . . وأنهم ساروا ألفاً وثلثمائة كيل في أرض لم تطأها قط سيارة (١) . . .

وأنهم سلكوا بين تبوك والعلا منتشكاً في جبال المطلع ، ساروا فيه بالسيارة من ضحوة اليوم الى عصر الفد ، فلم يقطعوا من الطريق خمسة عشر كيلاً . . . وكانوا يدورون فيه كما دار بنو اسرائيل في التيه . يعيشون ما يعيشون ثم يعودون من حيث جاءوا ، وجبال المطلع جبال عظيمة غريبة الشكل ، ليست سلاسل ، ولكنها آكام عالية ، وجبال منفردة ، عالية الذرى ، معددة القمم ، تشبه ذراها رؤوس المآذن وهام البروج ، لها منظر جميل فتان ، فيه هيبة ، وعليه جلال ، وهي مثورة نثراً ، تفصل ما بينها مضائق وطرق صخرية ملتوية متشابكة ، حار فيها الدليل ؛ وكان معهم دليل حاذق شيطان من شياطين العرب ، يقال له محمد الأعرج من مشايخ بني عطية ، وهو أعرج طويل له عينا ذئب ، حاد الذكاء ، ضيق الصدر ، خفيف ، كانوا يهيبون سؤاله ، فداروا في هذه المسالك حتى نفذ منهم الصبر ، وأدركهم الالاس ، فصعد الدليل قنّة أكمة ، فنظر يمينا ، ونظر شمالاً ، ثم صاح : لا إله إلا الله ، وتلك عادتهم : إذا أبصروا وادياً ، أو رأوا سهلاً ، أو طلع عليهم جبل ، تنهدوا . . . ثم نزل يطلع وقادهم في طريق ملتوية حتى جاوز بهم المطلع ، وأشرف بهم على السهل الفسيح . وكان عليهم أن يهبطوا السهل ليخترقوا جبل الأقرع وهو قبالتهم ، فنظروا فلم يجدوا سهلاً ، وكانوا على رأس جدار قائم من الصخر ، ارتفاعه أكثر من أربعين متراً ، والنزول منه خطر محقق ، ولكن الرجوع موت أكيد ، وإذا هم رجعوا وضلوا أياماً نفذ فيها ما معهم من ماء ، فهلكوا لامحالة عطشاً ، فاستخاروا الله ونزلوا نزولاً ما نظن سيارة نزلته مذ خاق الله السيارات : تندرج من تحتهم الحجازية الى قرارة المنحدر ، فيكون لها فرقة مخيفة ، والسيارة كأنما هي من الانحدار قائمة على مقدمها ، والركاب شاخصة أبصارهم ، ينظرون عن أيامهم وعن شأنهم ، لا يدرون من أين يأتيهم الموت وقد تابوا واستغفروا ، واستودعوا الله أولادهم وأموالهم . . .

(١) الا سيارة صالح بن عبد الواحد أمير القرينات التي سار بها من القرينات الى المدينة

ومرّت عليهم ربع ساعة أمّون منها رباط سنة في جبهة الحرب ، ثم وفق الله فبلغوا السهل ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله . . . ويهبون كمن صحا من حلم مروع !

وكانت الشمس قد غابت ، والليل قد ارتفع ، فنزلوا للمبيت يستمدون لواذي الأقرع ، وكانوا على رغم ما لقوا يسمعون من الدليل أنه هتّين بجانب خور حمار ، وأن العناء والبلاء إنما هما في خور حمار ، فكانوا يرون خور الحمار هذا في أحلامهم ، ويبصرونه فاتحاً قاه لا ابتلاءهم ، ويرون حبال رأسه حجراً مكتوباً فيه : هنا مات الوفد الأول الذي ذهب لفتح طريق السيارات . . .

وتلقوا من الند وادي الأقرع ، فلما لجوه ذكروا بالخير جبال المطلع ، ووجدوها حبال بار الأقرع جنة النعيم ، والوادي عربض فسيح ولكنه وعمر ، كله صخور عظيمة ، ورمال خطيرة ، إذا نجت السيارة من رملة صدمتها صخرة ، وإن خلصت من الصخر غاصت في الرمل ، فداروا فيه كما يدور الحمار في الساقية ، وكان سيرهم سير السواقى ، سفرّاً لا ينقطع . . . ثم فتق لهم التفكير وجه الحيلة ، فأجمعوا الرأى على أن يركبوا السكة بالسيارات ويجبوا من أنفسهم كيف حملوا هذا العناء كله ، ولم يهتدوا إلى هذا الرأى . . . وكانت السكة عالية تمشي فوق الوعرة كأنها الصراط ممدوداً فوق جهنم ، فامضوا ساعتين في ارتقاؤها ، ثم لما ركبوها تمذر السير عليها ، فمجبوا من أنفسهم كيف ارتكبوا هذه الحماقة ، ولم يعلموا أن السيارة لا تمشي على سكة القطار ، وأنفقوا ساعتين أخريين في النزول عنها ، حتى إذا تزلت جلسوا على الأرض وقد طحن الجهد أجسامهم ، وملأ اليأس نفوسهم ، وانقطع أملهم من كل شيء إلا من الله ، وضل من يدعون إلا إياه ، فاقبلوا على الله بالدعاء والاستغفار ، وذاقوا من حلاوة الايمان وبرد اليقين ، ما اطمأنت به نفوسهم ، وارتاحت له ضائرتهم ؛ ثم لم يلبثوا أن استجاب الله دعاءهم ، وجاءهم منه الفرج ، وسمعوا هتاف الجند الذين يمث بهم أمير الملا بأمر جلالة الملك عبدالعزيز لموتهم وخدمتهم . . .

جلس يفكر في هذا كله ، ففراها حيناً إذا قيس بخور حمار

وذكر كيف أمضوا نهراً بطوله ، يستمدون لدخول الخور ، فلما أقبلوا عليه رأوا مدخله كالشارع العظيم ، على جانبيه صخور كبيرة مكعبة مستوية قائمة كالبنيان ، كأنما قد بنى يد بناء حاذق ، عيزان الزئبق والشاقول ، وفي وسطها جدار من الصخر عرضه ستة أمتار ، يشبه في شكله سفينة عظيمة لم تنزل بمد إلى البحر ، لها مقدسها وجوانبها ، وقد قدر أصحابنا علو هذه الصخور من مائة إلى مائة وخمسين متراً ، فامتلات نفوسهم رهبة وخشوعاً ، وأحسب أن لورأى هذا المر سياح الأمريكان لحلوا في سبيل رؤيته عناء السفر في البادية مهما طال وشق . . .

وأرض هذا المضيق رملية حراء يفوص فيها الماشى إلى الركبة ، لها شكل متموج جميل يشبه شكل البحر ، يلذ المرء أن ياتي بنفسه عليها ، فيشمر كأنما ياتي بنفسه على فراش ناعم حلو . أو ينام على سطح الماء . . .

وذكر كيف انقضى النهار وانقضى الغد ولم يجاوزوا نصف المضيق ، ورفع رأسه وكان الفجر قد انبلج ، وبدت طلائع النهار ، فرأى هذه الصخور الشاهقة المستوية ، وهذه الشقوق التي تحدث فيها بينها مثل الأزقة ، يملأ مرآها النفس خشوعاً

وذكر كيف بذلوا جهدهم ، واستعانوا بمشرين من الجنود الأقوياء ثم لم يقطعوا في يومين أكثر من كيلين في هذا المضيق ، وخالط نفسه الضيق واللل من طول هذه الرحلة وعنائها وما قامى فيها من التعب والجوع والعطش والنعاس ، وما عانى من سوء الصحبة ، وقبح الأخلاق ، وخاف أن تعطل السيارة ، أو يضلوا الطريق ، أو تمسكهم وعرة ، فينفد الماء ويموتوا عطشاً . . ولم يخف لصاً ولا سارقاً ، فقد جعل ابن السمود خور حمار وهو أفضح مكان في البادية ، آمن من ميدان النجم في باريز !

وفكر أبلغ المدينة أم يهلك من دونها ، وهاجه تصور المدينة ، وأحيا في نفسه الأمل مرأى القبة الخضراء وهي طالعة عليه من وراء الأفق البعيد ، وطار بها إلى الملأ الأعلى تخيله الوقوف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلاته في الروضة ، وقيامه من بعد أمام الكعبة ، وشربه من ماء زمزم ، وسميه بين الصفا والمروة ، وشهوده هذه الأماكن التي ولد فيها الاسلام

هل تأثر الفقه الاسلامي

بالفقه الروماني؟

أو الحقيقة هي العكس؟

بقلم صالح بن علي الحامد العلوي

اطلعت في العدد الحادي والتسعين من « الرسالة » الغراء على مقالين أحدهما للأستاذ أمين الخولي ، والآخر للأستاذ علي الطنطاوي ؛ وكلا المقالين دائر على مقال آخر قد نشرته الرسالة عن الامام الأوزاعي للأديب الفاضل عبد القادر الجاعوني

ولم يستر كتابتي من هذا ولا ذاك شيء إلا نقطة واحدة طرقها الثلاثة وكانوا فيها جد مختلفين ، وكادت بل شادت الرسالة ان تساهم في المعمة ولكن بإيجاز وإيماء . والنقطة المختلف فيها هي ما حملته عنواناً لأسطرى هذه وهي : هل تأثر الفقه الاسلامي بالقوانين الرومانية أم الحقيقة هي العكس ؛ إذ تعرض الكاتب الجاعوني فيما كتبه عن الأوزاعي لقولة كولد زهير بتأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني وقال : (إن كانت هذا صحيحاً فأحر بالأوزاعي أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي ومن أقربهم إلى اتباع الكتاب والسنة ، والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الروماني) فكان الأستاذ الخولي فيما كتبه مؤيداً لرأى تأثر الفقه الاسلامي بغيره ، وكان الأستاذ علي الطنطاوي في مقاله منكراً كل الانكار أن يكون الفقه الاسلامي مأخوذاً من الفقه الروماني ، وتشاء الرسالة أن تعلق عليه بأن هناك فرقاً شديداً بين التأثر والأخذ

وعلى تسليم صحة الفرق بين التأثر والأخذ فحصل كلام الأستاذ الطنطاوي إنكارها معاً والجزم بأن ذلك في زمن العلم خرافة من الخرافات

هذه هي وجهات نظر هؤلاء الكتاب . وسهما فلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر فكلا المعنيين يجريان إلى مدى واحد ، وهو أن يكون في أصل الفقه الاسلامي ومزاجه شيء من الفقه الروماني .

وعاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت مهبط الوحي ، ومطلع شمس النبوة ، ومعقد الآمال من نفس كل مسلم واستغرق في تفكيره فلم ينبهه إلا صوت مؤذن القوم برن في هذا الرادى الساكن : الله أكبر ، لا إله إلا الله ، فتردد نداء هذه الصخور الشم . وتعد الابل أعناقها مصيخة هادئة ، ويهب البدو من منامهم ليقبوا الصلاة ، وأصحابنا السواقون ومعلوم يفظون قطيعة البكر . . .

ثم قاموا إلى الصلاة ، فاعى الخوف من نفسه ، وصغرت عليه البادية ، وهانت عليه مشاقها ، وتضاءلت هذه الجبال القاعة حتى كأنها لصقت بالأرض ، وكأنها طويت له الغبراء فلم يعد مائق في البادية على بعد ألف وثلاثمائة كيل من منزله في دمشق كعبة من الرمل ، أو هو أهون على الحياة منها ، لأنها وإن طار بها ريح ، أو حملها سيل ، باقية كما كانت ، لا تموت ولا تندثر ، وهو يموت من أجل رغيغ من الخبز وكأس من الماء ، بل أحس كأنها هو في منزله ، ولم لا ؟ وما يناله في البادية إلا ما قد كتب عليه ، ولا ينال في منزله إلا ما كتب له ، وإذا كان يأمن على نفسه اللصوص والأعراب ، وينام في عرض الصحراء ، كما ينام في أرض غرفته ، لا يغمه باب ، ولا يحميه حارس ، ولا يخالط نفسه خوف ولا جزع ، لأنه في حمى ابن السمود وأرضه ، أفلا يأمن من كان في حمى الله رب ابن سمود وأرضه ؟

وكان القوم قد هموا فأقبلوا يضعون الشاي والقهوة ، وجلست حبال صخرة أكتب هذه الكلمة « للرسالة » ، لأبث بها مع جندي من البدو إلى بريد العلا ولست أدري أخرج من هذه البادية فنقرؤها ، أم نبتلنا هذه الصحراء التي ابتلت دولا وأمما وجيوشاً

وسيقراً هذا الفصل قراء « الرسالة » وهم في دورهم ومساكنهم ، لا يدرون ما الصحراء ، ولا يعرفون منها إلا ذكرها في الكتب ووصفها في الأشعار ، فيحسبون أنها تسلية أو خيالاً ، وما هي بالتسلية ولا بالخيال ، ولكنه مقام بين الموت والحياة . . .

الهم سلم

علي الطنطاوي